

## الْبَيْتُ نَوَاةَ الْمَجْتَمَعِ

أولئك الذين بلغوا منا الخمسين أو تجاوزوها يعرفون ذلك البيت القديم الذي كان الرجال يتفصلون فيه عن النساء ، والذي كانت تجتمع فيه السلطة في يد الأب - ذلك البيت الذي يمكن أن نسميه "بيت ديكتاتوريا" حيث سلطة الأب هي السلطة العامة عرفا وقانونا . وكنا يذكر تلك "المطربة" بجوار الباب الخارجي حيث كان يقعد الأب فيتناول عشاءه مع صيونه أو مع الأعضاء الكبار من عائلته من الجنس الحسن دون الجنس اللطيف . وما يتبقى من الجنس يرد إلى البيت حيث يأكل سائر الأعضاء من الجنس اللطيف في انفصال وعزلة .

وقد يكون في وصف هذا بيت بأنه "بيت ديكتاتوري" شيء من المبالغة . ولكن لا شك في أن الأب كان ديكتاتورا في مظهره وسلوكه ، وكان المجتمع المصري أيضا ديكتاتوريا .

وكما يكون البيت يكون المجتمع . ولا يمكن بتاتا أن تؤلف مجتمعا ديمقراطيا إذا كان البيت ديكتاتوريا . لأن البيت هو نواة المجتمع . فإذا حصرنا السلطات جميعها في يد الأب وجعلنا الزوجة والأولاد خاضعين خصوعا أسمى لأبيه فإننا لا ننظر من هؤلاء جميعا إلا أن يرضوا قانعين بمجتمع استبدادي تتركز السلطات فيه في يد ديكتاتور .

ولذلك يجب إذا شئنا مجتمعا ديمقراطيا أن نوجد للعائلة الديمقراطية . يجب عندئذ أن يجعل الديمقراطية معيشة تجارس وليست مذهبا أو مبدأ تؤمن به . فنحن نعرف أن المجتمع الديمقراطي هو ذلك الذي يعبر عن ارادة الأمة ويطالب كل فرد فيها بتبعاته السياسية والاجتماعية ، ويخجل سلطة الأمة هي العليا وأسلوب الحكم فيها هو الأسلوب الذي ترضاه . وكذلك يجب أن يكون البيت الديمقراطي . بل يجب أن تكون الديمقراطية في البيت هي الأساس الذي تبنى عليه الديمقراطية في المجتمع . ونحن هنا بالطبع نشد أمنية لما تحقق . فإن الديمقراطية حال مثل تحتاج إلى أن ترتفع المستويات الثقافية والاقتصادية حتى يتمكن كل فرد في الأمة من تحمل تبعات التي يقتضها النظام الديمقراطي . ولكن مع ذلك يجب أن يكون البيت هو الأساس ، وأن تحقق أمنية الديمقراطية في البيت كما يراد تحقيقها في الأمة .

حضرت من بلدة قريبة مناظرة بين بعض الشبان والآنسات عن حق التصويت والانتخاب فهل يجب منحهما للمرأة اسوة بالرجل ، ولم يخطر ببال المتناظرين أن هذين الحقين إنما يراد بهما إيجاد برلمان . وإن غاية البرلمان الأصلية هي تقرير الميزانية للدولة ، وما ينطوي

عليه هذا التقرير من فرض الضرائب أو زيادتها أو نقصها وتعيين الإيراد والمصروف لكل مصلحة . ولكن اذا نحن سلمنا بأن البيت هو نواة المجتمع فهل يمكن أن نسلم أيضا بأن اقتراح مثل هذين الحقين للمرأة يجب أن يتطوى على حق المرأة في البيت في الاشتراك في ميزانته وأن "الحساب الجارى" في البنك مثلا باسم الزوج يجب أن يكون أيضا باسم الزوجة وأن البيت يجب ان يكون له "برلمان" لا يبت فيه شأن الا باشتراك جميع الأعضاء ؟

إن البيت الديمقراطي الذى يؤدي في النهاية إلى مجتمع ديمقراطى هو البيت الذى لا يعرف العقوبة الامتدادية . هو البيت الذى يؤمن بأن العقوبة جرمية . هو البيت الذى تؤسس فيه جمعية للأطفال والصبيان تكون البذرة الديمقراطية الأولى في حياتهم الاجتماعية . وهذه الجمعية هى التى تقرر "الجزاءات" ولا تقول العقوبات . فيتحمل الفرد جزاءه وهو راض لأنه هو نفسه عضو في هذه الجمعية ، وهو عندئذ لا يكره أحدا من إخوته أو من أبويه لأنه لا يجد هدفا شخصيا لهذه الكرامة . وهو لذلك ينشأ بلا أحقاد أو إحن .

والبيت الديمقراطي هو الذى يشترك فيه الزوجان اشتراك المساواة في ميزانية البيت والحساب الجارى والمشروعات المالية والاجتماعية . وهو البيت الذى يحاول فيه الزوج - في بيتنا الحاضرة - رفع زوجته الى مستواه الثقافى والاجتماعى حتى تصير المساواة حقيقة واقعة بل حقيقة نافذة . هو البيت الذى يجتمع فيه الانسان مع ضيوفهما في ضيافة مهذبة نيرة مثمرة . ثم هو أيضا البيت الذى يعامل الخدم بالاحترام الذى تصببه الكرامة الإنسانية . وهنا يجب أن نذكر أن بعض الأمم ألغت اسم الخادم واستبدلت به اسم « أمين البيت » صيانة لكرامته . وأذكر أيضا ما أعرفه عن صديق أمريكى في القاهرة يدعو خادمه المصرى مع زوجته وأولاده إلى الغداء عنده ثم يقف هو - أى هذا الأمريكى - مع زوجته وأولاده لخدمتهم جميعا . ولست أكبر من القيمة المادية لهذه الدعوة ، لأنى لا أتعمى عن النظام الذى نميش فيه وأنه يقتضى وجود السيد والخدم . ولكنى أيضا لا أتعمى عن القيمة الرمزية لهذا العمل . وهى قيمة ديمقراطية في أمة تؤمن بالنظام الديمقراطي وتقول بالمساواة في الحقوق المدنية والدستورية والكرامة الإنسانية بين السيد والخدم .

يجب أن نجعل البيت نواة المجتمع . فإذا كنا نريد مجتمعا تسوده الحرية والإخاء والمساواة فإنا يجب أن نعم هذه الفضائل في البيت . وأن نبني العائلة على علاقات الشرف مع الروح الديمقراطية في جميع معاملاتنا بعضنا مع بعض وجميعنا مع الأجانب . وقد تكون هناك أخطار من هذه الحرية تمنح للصغار ، أو من المساواة الجنسية تمنحها للمرأة التى ليست كفتا لها . ولكن عالمنا هذا محفوف بالأخطار . والنظام الديمقراطي كذلك لا يخلو من الأخطار سواء في البيت

أو المجتمع . ولكن العبرة في جميع النشاط الإنساني بالنتائج . وما دامت لدينا كمية ساحقة من الأمثلة الصالحة فلا نبالي بالمدد القليل من الأمثلة السيئة .

ونستطيع أن نبرز بالموازنة مساوئ البيت الاستبدادي ومحاسن البيت الديمقراطي ، ففي الأول نجد أن السكينة تعم البيت ولكنها سكينه السجن المفتعلة ، ونجد الخوف والمجمل والرياء . والصبي الناشئ في هذا الوسط يحسن الطاعة ولكنه قد ينفجر يوماً ما ، لأن الطاعة هنا كانت كظلمة وكبت ، كما نرى عند أولاد البخلاء حين ينفجرون عقب وفاة والدهم فيذرون ما جمع لهم ، لأن الكظم يؤدي إلى الانفجار ، وكذلك الشأن في أبناء الأب المستبد أو قرينة الزرع المستبد جميعهم يعيشون في طاعة الكظم ، وهم ينشأون على خوف أو مجمل ، والمجمل هنا خوف ملطف ، وهم يواجهون الدنيا في جهل وليست لهم قدرة على الابتكار ، أما البيت الديمقراطي ، فإنه يربي الشخصية قبل كل شيء ، هذه الشخصية التي تراها حتى في الصبي يلعب وحده ويتكرو وتحدث ويقابل الضيوف كأنه رجل صغير ، وهو يعرف الاستقلال لأنه تموده . ولذلك يمارس هذا الاستقلال ، وهو يجرؤ على ارتياء الرأي ، وإذا عاونه الظروف فإنه يمشي عترياً ، ثم هو بعد ذلك يصير عضواً نافعا في المجتمع يحسن التبعات السياسية والاجتماعية فإنه " راع مسئول عن رعيته " لأنه كان كذلك في البيت ، أما ذلك الذي نشأ في بيئة الاستبداد رانكر عليه الرأي ولم يعيش في جو الحرية والمساواة فإنه يرضى بأية حال اجتماعية ويقبل بهيئتنا ، نرى كما سبق أن قبل الأب المستبد لأن البيت نواة المجتمع .

### من وصايا الإمام علي

لاعب ابنك سبعا ، ثم أدبه سبعا ، ثم صاحبه سبعا ثم ألقي حبله على غاربه .